نحو مدينة سعيدة متسامحة «١»

د.وليد أحمد السيد
مستشار تطوير التراث العمراني
sayyedw14@gmail.com

في نسخته الثامنة التي باتت تعقد كل عامين، طرح مؤتمر عجمان الدولي للتخطيط العمراني الأسبوع الماضي بمشاركة مجموعة من المعماريين والمخططين ومهندسي تنسيق المواقع، موضوعا مختلفا في بحثه في قضايا المدينة حيث سعى لتعريف وتحديد أسس المدينة السعيدة والمتسامحة. ويأتي هذا الموضوع بعد ان صدر تقرير السعادة العالمي لعام ٢٠١٧ عن مجموعة من الباحثين المستقلين والذي يعالج مجموعة من القضايا الاجتماعية والبيئية والصحية والنفسية عبر تقاطعات عابرة للقارات بحثا عن تصنيفات لمعايير الرفاه والسعادة في الدول والأقطار المختلفة.

مؤتمر عجمان الدولي الثامن، حيث اتيحت فرصة المشاركة فيه كمتحدث منذ عدة سنوات والذي تنظمه بلدية عجمان، وبدعوة من البروفسور صباح مشتت، جاء متساوقا مع توجه دولة الامارات العربية المتحدة باستحداث وزارة جديدة للسعادة، وجاءت البحوث والمناقشات ضمن هذا الإطار من خلال عرض التجارب المختلفة الدولية من الباحثين والمشاركين. هذا المؤتمر يطرح موضوعا مهما يتساوق مع معطيات القرن الحادي والعشرين وفي فترة باتت المدن تحتاج للالتفات للمعايير اللامحسوسة التي بدون شك لها اثر باتجاهين في البيئة المبنية.

المدن السعيدة والمتسامحة

فكرة المدينة السعيدة تبدو مثالية وحالمة لأول وهلة، ويقفز للذهن مباشرة فكرة المدينة الفاضلة أو المدينة المثالية من جهة، كما يبدو المصطلح مغايرا لفكرة المدينة التعيسة أو مدن الكراهية والتناقض الاجتماعي. والتساؤلات التي تطرح هي كيف نعرف المدينة السعيدة وما هي معايير السعادة؟ فهذا مصطلح نسبي يرتبط بالادراك والشعور النفسي اكثر منه كحالة تطبيقية انعكاسية على البيئة العمرانية والبيئة المحسوسة. أم هل للبيئة المخططة جيدة دور أساسي في تحقيق السعادة للقاطنين؟ الإجابة تبدو متشعبة ومرتبطة بالعلاقة بين المدرك واللامدرك من التنظير الفلسفي لمفهوم السعادة ولمحاولة النظريين والتطبيقيين لاسقاط هذا المفهوم ضمن رؤية مثالية للمدينة الفاضلة على النسيج الحسي للمدينة. ولكن قبل ان نناقش هذا التطور التاريخي الفلسفي لمحاولة الفلاسفة الاقدمين لتعريف البيئة الجيدة والمثالية وما تلاها من محاولات المخططين والمعماريين لتعريف النسيج العمراني الجيد، لنبدأ أولا بمداخلة أساسية يطرحها علماء الحضرية في نظرتهم المتباينة للمدينة الحديثة. فمن جهة يرى بعضهم ان المدن الكبيرة الضخمة هي فرص كبيرة للاستثمار والثراء وتوفير الحياة الكريمة لسكانها، ومن جهة أخرى يرى آخرون انها مستوطنات ضخمة تعيسة وبائسة تنتشر فيها الامراض والاوبئة ومناطق الفقر وعدم تكافؤ الفرص والظلم الاجتماعي ونقص الرعاية الصحية، فأيهما اقرب للواقع، وهل يمكن فعلا تلافي سلبيات المدن سعيا نحو مجتمعات وبيئات افضل تقترب من النظرة الإيجابية للمدينة المعاصرة؟

ولذلك فقد جاءت مداخلة كاتب هذه السطور كأحد المتحدثين بالمؤتمر ضمن عدة أطر ومحاور لتفكيك هذا المفهوم، لا سعيا نحو تعريف المدينة السعيدة او المتسامحة، كما جاءت اغلب مداخلات المتحدثين، ولكن سعيا لفهم الفكرة بمناقشة ضدها، فالشيء يعرف بضده ونقيضه.

من فعاليات مؤتمر التخطيط العمراني

المدينة: نظرة متصلة

فالمدن العالمية الحديثة كما يذكر (Tom Angotti) باتت هي علامة القرن الحديث، فأكثر من نصف سكان الكرة الأرضية يسكنون في مدن ضخمة رئيسة، وبالوتيرة التي تستمر عليها الزيادة المطردة في الحضرية يعتقد بأنه مع حلول نهاية القرن الحالي سيكون كل سكان الكرة الأرضية يسكنون في عواصم ومدن حضرية تاركين ما يعرف بالريف للزراعة ومناطق شبه خاوية تخصص للزراعة الصناعية والتنجيم وشؤون الغابات. ويرى علماء المدن والدراسات الحضرية والمدينية ان التحضر أصبح ظاهرة عالمية منذ أكثر من قرنين من الزمان. فالعالم في العام ١٨٠٠ لم يعهد مدينة يصل عددها المليون باستثناء مدينة واحدة هي لندن. وبينما كان عدد سكان المدن المائة الكبرى في العالم قاطبة لا يزيد عن ٢٠ مليون نسمة آنذاك، أصبح عدد سكان المائة مدينة كبرى مجتمعة يزيد عن ٥٤٠ مليونا في العام ١٩٩٠، كما ان أكثر من ٢٢٠ مليونا منهم يتركز في ٢٠ من هذه المدن العالمية الكبرى مثل طوكيو التي يزيد عدد سكانها عن ٣٠ مليونا اليوم، ومكسيكو سيتي ٢٠ مليونا ونيويورك ١٠ ملايين.

ومع نهاية القرن العشرين هناك ٢٠ مدينة ضخمة تحوي أكثر من ١٠ ملايين نسمة. كما أن ١٩ مدينة من أصل ٢٥ مدينة ضخمة تنتمي للعالم الثالث. وهناك أكثر من ٦٠ مدينة في العالم يبلغ تعداد سكانها أكثر من ٤ ملايين نسمة. كما انه كان من اللافت تصاعد وتيرة موجة الهجرة من الريف للمدينة في العالم بشكل عام في النصف الثاني من القرن العشرين. ويهاجر أكثر من ٢٠ مليون فرد للمدينة سنويا بسبب للتطور الصناعي والإغراءات المدينية مقابل تدهور حال الأراضي الريفية والريف بشكل عام نتيجة التلوث البيئي أحيانا. وقد قفزت أعداد السكان بالمدن العالمية من ٢٠٠ مليون في العام ١٩٥٠ إلى مليارين في العام ١٩٩٠، ويتوقع أن يصل هذا العدد إلى ٣ مليارات في العام ٢٠٢٥.

في عام ١٩٢٥ كان هناك أقل من ١٠ بالمائة من السكان في الدول النامية يعيشون في المدن. بين العام ١٩٥٠ والعام ١٩٧٥ استقطبت المدن الحضرية في هذه الدول النامية أكثر من ٤٠٠ مليون نسمة. ونزح للمدن الحضرية في البلدان النامية بين العام ١٩٧٥ والعام ٢٠٠٠ أكثر من ١٠٠٠ مليون نسمة، نصفهم من السكان الذين يعيشون في هذه المدن أصلا وذلك بفعل الزيادة الطبيعية العالية وعدد أفراد الأسرة الكبير طبيعيا.

مشكلات «مدينية»

المحور الآخر الذي تطرقت له مداخلة كاتب هذه السطور في عرض واقع المدينة الحالي، في محاولة لإظهار ما تعانيه المدن الكبيرة ضمن الأطروحة التي تظهر المدينة كواقع متشابك من السلبيات والإيجابيات كان عرض موجز ضمن نقاط تلخص علاقة المدينة بالبيئة المحيطة. فالمدن الحديثة تشكل فقط ٢٪ من مساحة سطح الكرة الأرضية ومع ذلك تستنفد ثلاثة أرباع المصادر الطبيعية للأرض، وتطرح نفس الكمية الهائلة من الفضلات ومخلفات الصناعات.

وقد جلبت المدينة والمدنية الحديثة مجموعات مستحدثة من الأمراض المزمنة التي لم يعرفها أسلافنا من البشر منها أمراض القلق والكآبة النفسية وأمراض الظهر والربو وأمراض الجهاز الهضمي والبدانة المفرطة التي تقود للكثير من الأمراض المزمنة وذلك بفعل تناول مجموعات ضارة من الأغذية التي تقود إليها مع قلة الرياضة والحركة بالجلوس لساعات طويلة سواء خلف المكاتب وأمام شاشات الكمبيوتر أو التلفاز. كما أن هناك تحورات بيئية ومشكلات المدينة غير المسبوقة إذ تشكل مسألة علاقة المدينة الحديثة بالبيئة المحيطة إحدى أبرز المشاكل المعاصرة الآخذة بالإتساع. فهناك مشاكل التلوث بأنواعه المتعددة. وهناك تناقص الموارد الطبيعية بتزايد رقعة المدينة على حساب الأراضي الزراعية، والمشكلات الإجتماعية كالبطالة والجريمة. وتغير مفاهيم الصحة الفردية وتدهورها في المدينة. يضاف لها مشكلة التزايد المستمر في درجة حرارة العالم. ونتيجة لثراء المجتمعات الحضرية وتنامي المدن العالمية الضخمة بما تتطلبه من حرق مصادر الطاقة والوقود لتسيير حياة سكانها اليومية وتصاعد الغازات الضارة في الجو وتلوث الهواء وإنتاج الكميات الهائلة يوميا من ثاني أكسيد الكربون والميثان وثاني أكسيد النيتروجين وغيرها فقد تسبب كل ذلك في تكون ظاهرة «التسخين العالمي» أو (Global Warming)، وهي ظاهرة باتت مقلقة للحكومات والمجتمعات الإنسانية. كما ان احتباس الإشعاع الحراري في طبقات الجو العليا مما يرفع من درجة حرارة الجو، وهذه الظاهرة تنامت في المائة عام الأخيرة فقط حيث زادت درجة كمية ثاني اكسيد الكربون بنسبة ٢٥ بالمائة خلال القرن المنصرم وحيث زاد معدل درجات الحرارة بمقدار نصف درجة مئوية منذ الثورة الصناعية وكانت أكثر السنوات حرارة في الثمانينيات والتسعينيات مقارنة بمثيلاتها من القرن السابق. وهذه ظاهرة تهدد المدن التي تقع على شواطئ الأنهار والبحار، فتغير منسوب مياه البحر وستعاني من نقص مصادر الغذاء نتيجة الإرتفاع المتزايد لمنسوب المياه نتيجة التسخين العالمي والفيضانات وذوبان كتل الجليد الهائلة في القطب الجنوبي. ويكن مكافحة التسخين العالمي بزراعة كميات هائلة من النباتات والمحافظة على الثروة الحرجية . ومن الظواهر المستحدثة الصراع على المصادر الطبيعية والمدن «الطفيلية". كما تعاني مدن العالم نتيجة فائض الهجرة من صراع على الموارد الطبيعية وفرص العمل وضغط على السكن أكثر بكثير مما يمكنها توفيره مقارنة بالمساحة الجغرافية لهذه المدن. فمن أبرز المشكلات الأخرى التي تواجه مدن اليوم هي المصادر الطبيعية. فقيام المدن أصلا قام تاريخيا بناء على مواقع استراتيجية شكلت العامل الرئيس في اختيار مواقعها بالإضافة إلى ميزات وقوعها على خطوط التجارة والمواصلات.

وهناك مفهوم الرقعة الجغرافية «الفعلية» للمدينة والتي تتجاوز مساحتها الجغرافية الظاهرية. حيث تعرف الرقعة الجغرافية الفعلية للمدينة على أنها المساحة الفعلية اللازمة لاكتفاء المدينة بسكانها من المصادر الطبيعية، وتمويل احتياجاتها من منتجات الأخشاب وكذلك المساحة اللازمة لطرد غازات ثاني أكسيد الكربون التي تطرحها مخلفات الصناعة بها، والمساحات الخضراء اللازمة لعمليات الأيض الطبيعي

وهناك عوامل صناعية تعتمد عليها المدينة في وجودها كمحطات الطاقة والمصانع والتي تساهم في تدمير البيئة الطبيعية أكثر فأكثر. فالمدينة تستهلك موارد الطاقة الطبيعية وهي منتج رهيب للمخلفات من الصناعة والمخلفات الأخرى. وتستهلك مدن العالم وتحتاج إلى كميات هائلة من الماء لاحتياجات الفرد للشرب والاستحمام ووظائف الحياة والترفيه. ويتمتع مواطنوا شمال امريكا بحظوة كبيرة عن نظرائهم وبخاصة مواطنوا العالم الثالث. أما توفير اللحوم لسكان المدن فيعني توفير الحيوانات بكميات كبيرة في مزارع خاصة لها وظيفة وحيدة هي تربية الحيوانات لذبحها للإستهلاك البشري مما يعني تطوير أساليب العناية البيطرية واستعمال المواد الكيماوية لتنميتها بسرعة. كما أن البحث عن الغذاء الرخيص لتوفيره للمستهلك لا يمثل بحال الكلفة الفعلية والخسارة التي تتكبدها صناعة الغذاء وتوفيره للمستهلك على المدى البعيد، حيث أن مشكلات انجراف التربة الزراعية والضرر الذي يتكبده التوازن البيئي الريفي بواسطة الزراعة الحديثة.

مشكلات اسكانية واجتماعية

ثمة دراسة حول أكبر ١٠٠ مدينة عالمية لتقييم مستوى الخدمات والرفاه التي تقدمها المدن للمواطنين من خلال معايير منها السلامة العامة تكلفة الغذاء المساحة المتوفرة للسكن ومستوى الخدمات الإسكانية ونقاء الهواء والمواصلات والأمان الإجتماعي. المدن التي سجلت نتيجة «جيد جدا» كانت تقع في شمال أمريكا وأوروبا وأستراليا واليابان. اما المدن التي سجلت نتائج «جيد» فكانت تقريبا في نفس المواقع السابقة بالإضافة إلى بعض مدن شرق أوروبا. وهناك المدن ذات مستوى المعيشة «المقبول» مدن جنوب أمريكا الكبيرة والصين وكوريا وشمال أفريقيا. اما الدول ذات مستوى المعيشة «السيء» كانت في الهند وبيرو والبرازيل والباكستان وأفريقيا.

مشكلات بيئية: الفضلات والتلوث واستهلاك الطاقة

بقدر زيادة الرفاه الإجتماعي للمدن بقدر ما تزيد أطنان الفضلات التي تطرحها يوميا. وتتصدر العالم قاطبة مدينة نيويورك في طرح أكبر كمية فضلات يوميا حيث يطرح كل فرد ١,٦ كيلوغراما يوميا من القمامة، وتتخلص المدينة يوميا من ٢٤ ألف طن من القمامة ويطرح الأوروبيون عموما نصف ما يطرحه الأمريكان رغم أن كمية القمامة المطروحة تظل عالية. في بعض المدن مثل كالكتا بالهند يتم حل بعض مشكلة القمامة حيث يعتاش بعض الآدميين على الطعام المتوفر في القمامة.

السوائل الكيماوية السامة التي تطرحها المدينة يوميا تجسيد للمدن الصناعية المعاصرة ومظاهر المدنية. مخلفات التنظيف الصناعة والزراعة ومخلفات الزيوت ومساحيق التنظيف والأسمدة الكيماوية ومبيدات الحشرات تهدد العيش الصحي لسكان المدن والتلوث البيئي وتلوث الغذاء والثروة السمكية والكائنات البحرية وهناك مناطق عالمية تعد مناطق منكوبة من ناحية بيئية وصحية – دول أوروبا الشرقية ودول الإتحاد السوفييتي السابقة. وللحديث بقية

قصص قصيرة من مبادرة «أتخيّل وأكتب»

تأليف: مروة بنت علي الرشيدية.

(كنتُ عائدةً من مدرستي في ظهيرة حارة، بدا لي الشارع موحشاً وكأن أحداً لا يسكن هذا العالم غيري، فجأة؛ لمحت ظلالاً كثيرة تُحيطُ بي، تلفّتُّ حولي، ولكن؛ لا أحد..)

تلفتُّ مرةً أخرى، وأيضاً لا أحد، فكرت: ما هذا الذي رأيته؟ ربما هي حيوانات خفيّة، أو ربما كان أحدٌ يراقبني من بعيد، هذا التفكير أشعرني بالخوف كثيراً، وفكرت بمن يمكنه مساعدتي إن تعرضت لأي سوء.

حاولت تهدئة نفسي والتفكير بشكلٍ علمي، فربما كانت هذه مجرد تخيّلات بسبب شدّة الحرارة.

وصلت إلى منزلي وأخبرت عائلتي، ضحكوا جميعاً من تخيّلاتي وقالوا إنها مجرد أوهام بسبب حرارة الجو والحمى؛ فقد كنت مصابةً بالحمى.

في اليوم التالي لم ألمح أي ظلال، أيقنتُ أن للحمى دورٌ كبير فيما حدث معي.

ضحكت من نفسي كثيرا كلما تذكرت ما كنت أفكر به من حيواناتٍ خفيّة، وظلالٍ تراقبني لتؤذيني.

الخيال الثاني: حُلم

تأليف: أنوار بنت سعيد المالكي.

(كنتُ عائدةً من مدرستي في ظهيرة حارة، بدا لي الشارع موحشاً وكأن أحداً لا يسكن هذا العالم غيري، فجأة؛ لمحت ظلالاً كثيرة تُحيطُ بي، تلفّتُّ حولي، ولكن؛ لا أحد..)

خفت كثيراً، التفت خلفي فلم أرَ أحداً، أسرعتُ في مشيي، ثم ركضت، شعرت بأن أحداً يركض خلفي، التفتُّ مرة أخرى؛ فتيقنت أن أحدهم يركض خلفي، علمت أنه يريد اختطافي فقد كان بيده مخدراً، أمسكني وغرس إبرة المخدر في يدي ولم أعد أشعر بشيء.

حين أفقتُ كنت مُقيدةً في غرفة مقفلة، حاولت الذهاب إلى الباب فلم أستطع، كانت النافذة أقرب ففكرت أن أحاول الوصول إليها علّني أستطيع قطع الحبل بزجاج النافذة، ولكنني أيضاً لم أستطع.

فجأة شعرت بخطوات تقترب مني، شعرتُ بخوف كبير وتيقّنت أنني لن أخرج من هذا المكان أبداً، أغمضتُ عينيّ، شعرتُ بيدٍ تصل إلى جسدي، وصوت يصل لأذني، فتحتُ عينيّ ببطء وخوف، رأيت أمي توقظني لأنني تأخرت في النوم، وعلي أن أستيقظ قبل أن يفوتني باص المدرسة.

الخيال الثالث: لا يتذكّرني

تأليف: زينب بنت زايد البدري.

(كنتُ أسيرُ وحدي في شارع مفتوح بعيداً عن الحي الذي أسكنُ فيه، فجأة أظلّمت الدّنيا رغم أن الوقت كان نهاراً ..)

كنتُ أسمع من يناديني ولكنني لم أتمكن من الإجابة، حاولت وحاولت ولكني لم أستطع. لا أعلم كم من الوقت مر، ولكن؛ فجأة عاد النور إلى الدنيا، وكأنه أول يوم من ولادتي، لم أعرف أحداً ممن حولي، حاولتُ أن أتذكر الوجوه التي تحيط بي، أو تذكر ما حدث معي، ولكنني لم اتذكر شيئاً أبداً.

أنا لا أعرف المكان الذي أنا به، البيت يبدو غريباً عليّ، والمرأة التي تدخل غرفتي لا أعرف من هي، أشعر بأني أعرفها، وكأني رأيتها من قبل، ولكنها أجابتني حين سألتها من تكون:

. لقد رأيتك يا بني عند مدخل بيتي، خِفتُ عليك فأدخلتك.

أخبرتها برغبتي في العودة لمنزلي وعائلتي، فأجابتني بأن أتريث قليلاً ريثما تجد حلاً للأمر وتتمكن من إرجاعي لأسرتي، وطلبت مني أن أنام قليلاً، ولكنني لم أستطع. خرجت لعلّي أتسلى قليلاً مع تلك المرأة؛ فتفاجأت بها تبكي بحرقة وهي تقول لزوجها:

. إنه لا يتذكرني، لا يعلم من أنا.